قصّة قصيرة

تلك الدقائق

الدكتور هاني الراهب

إلى هشام شرابي

ها هنا منعزل عميق، تصفر الرياح فيه، وتصير الصحراء غيوماً. أجلس وراء نافذة سميكة الزجاج. عيناي تعبران إلى الرمال الطائرة، حيث الأرض الوطيئة تهبّ بوجه السماء، وإلى مشهد مماثل إلى حدٍّ بعيد هو حياة بعثرها الزمن في فضائه.

كانت أمّي تقول: الأرض الوطيئة تشرب ماءها وماء غيرها. أعرف منذ صغري أنّي أرض وطيئة. لكنني، الآن وقد رميت وراء ظهري نصف قرن من الزمن، لا أذكر أني شربت يوماً سوى ماء روحي. كل الأراضي كانت فوقي، ومياهها أيضاً.

هناك أناس يخلقون هكذا. يكبرون، ويصيرون وزراء أو علماء أو رؤساء شركات أو صحفيّين كباراً. وهم هكذا: الأراضي فوقهم ومياهها أيضاً. وطول عمرهم تمتلكهم قناعة ما بأنهم ليسوا ممّن تحوّل الحياة مجرى أنهارها لتصبّ في أرضهم.

شيء قريب من هذا الكلام قلته لسهير يوم التقينا أوّل مرّة قبل ثلاثة وعشرين عاماً. دقائق قليلة أمضتها واقفة في منتدى النقابة، لكننا فوراً وبلا مقدّمات اشتبكنا في نقاش مقتضب مازح عن التواضع. قلت لها إن كل ماء ينزل من فوقٍ إلى تحتٍ سيحمل معه نفسيّة التنازل. قلت إن الماء الذي يعطي تفضّلاً لا يروي غليلاً.

طبعاً، تبدأ المشكلة عندما تبدأ أنت فتحسّ بحاجتك إلى جرعة من ماء الآخرين. وهذه أيضاً خلقت معي منذ البداية. هذه الحاجة القويّة الهادئة التي تمسك بألوانها الكثيرة وترشّها أمام عينيك على الأوقات والأمكنة. حقّاً إن الناس كلّهم يخلقون هكذا. الفرق هو في نوع إحساسهم بالحاجة إلى جرعة الماء.

في عشريناتي كنت أشكو بين لحظة وعي وأخرى من جرحي الداخلي الدائم الذي سببه أني خلقت وأرضي وطيئة. بنصف وعي، وبجهد كامل، سعيت للحلّ الوحيد: أن أرفع أرضي فأجعلها تبدو عالية كأراضي الآخرين. وكان لا بدّ في أول دربي إلى أن أصير طبيباً لامعاً من أن أُخفي كل ما يشي بموقع أرضي في الجيولوجيا البشريّة.

فماذا كانت النتيجة؟

كانت أن هذا المخلوق الخائف باستمرار، الذي يرى الخيبة طبيعة في الأشياء، والعطش ناموس الحياة ـ هذا المخلوق الذي هو أنا، اكتسب بين أقرانه سمعة الانعزال والصرامة، وما هو أسوأ بكثير: سمعة الاكتفاء الذاتي في كل ما يتعلّق بالمشاعر والمحبّات والفرح. اكتفاء هو في الحقيقة نوع من قناعة لا يملكها إلاّ المتواضعون.

هكذا قالت سهير عندما خاطبتني بجدّيّة أوّل مرّة: «خذ بالك! تواضعك هذا يمكن أن أراه أنا كبرياء!»

تصوَّروا! كبرياء؟.

أتراها لم تلاحظ يومها، وغسان يعرّف أحدنا بالآخر، كيف اضطربت في نهوضي فأوشكت أن أقع، وكيف سقطتْ أوراقي عن «التربيزة» وسيجارتي عن المنفضة؟ حتى بنطلوني، خشيت عليه فأسرعت أشدّ عليه بمرفقيَّ ليثبت على خاصرتيّ المنكمشتين، متظاهراً أنني أستعيد توازني.

يومها كنت قد بدأت صعودي. كنت في السابعة والعشرين. كل ما يهمّني ما يزال أمامي. لا شيء على الإطلاق مرميّ وراء ظهري. عندما أحمل السيجارة بين إصبعيَّ الوسطى والسبابة، أو عندما أنفض رمادها في المنفضة، يروح عالم بأكمله يمور ويتوهَّج بين عينيّ والدخان.

إلاَّ أن مشاعر العشق لا تعبأ كثيراً بإيقاعات الحياة. أنا خلقت هكذا. لحظة تصافح عيناي وجهاً حبيباً، لحظة يطلّ الجمال بقوّته وعلوّه، أتذكّر أرضي الوطيئة، يشتدّ عليّ الحب والجمال، بما فيهما من قوّة وأسر، فألتفت شطر أرضي باحثاً فيها عن المياه. لكنني عندما ألتقي بغسّان في النقابة، أو بسليم حول طاولة النرد، أجدني في سباق محموم للمسافات الفوقيّة.

عندما التقيت بسهير أوّل مرّة خَفَتَ ذلك العنفوان وانسحب مني . . .

ماذا بحقّ هذه السماء العكرة الصافرة جعلني أتذكّرها؟ وكيف

يمكن أن أطيق مشهداً يتيماً غابراً، مدّته ست دقائق أو سبع، صار وراء ظهري منذ ثلاثة وعشرين عاماً؟ أصلاً، هي من أية مدينة جاءت؟ من أيّة بلاد؟ من هي؟ من هم أهلها وأصدقاؤها؟ ومن هو صفوان هذا الذي أخذ من حديثها نصفه فبدا وكأنّه ليس زوجاً وحسب وإنما إلّه؟

وأنا؟ ماذا أردت منها؟ امرأة بهذه العذوبة المهلكة، جمال بهذا الجبروت، حضور بهذا الطغيان... كيف بوسع سنجاب أن يواجه حدأة؟ ما إن أطلّت حتى أحسست بأرضي الوطيئة. انكمشت على ترابها الرسوبي وجعلت أوراقي ترساً. كانت هناك مسافة عشرة أمتار تقريباً بين المنتدى والزاوية التي انتبذتها طلباً للعزلة. رأيتها تقبل، تقبل.. أحسست بها، تقبل، موجة بعد موجة، أمواجاً، تقبل على الهدا.. وأنا أتجمّع، أتجمّع، داخل روعي، حتى صاح غسّان: «غير معقول أنك لم تتأثّر بجمال سهير! قم يا عزيزي سلّم عليها!»

عرفت أن غسّاناً يريدها. وعرفت أن وجهها المشرق وابتسامتها التي لم تتعب، إنّما هما تعبير عن غبطتها بالبلسم الذي يقدّمه لنرجسيّتها.

نهضتُ. نهض جسمي، لكن كل شيء آخر سقط: «التربيزة»، الأوراق، الكتاب، فنجان القهوة، السيجارة، وطبعاً: لغتي وجناني وصعودي وعنفواني، وكانت هي قد مدّت أصابعها الطويلة المليئة للسلام.

قال غسّان غامزاً: «ترين يا سهير كم هو متواضع الدكتور هشام.»

قالت هي لي: «متواضع، هذا شيء حلو. لكن لا تخلّه يعني أنك منعزل عن الناس.»

وقفنا هكذا ثواني ليست كثيرة. يدانا متشابكتان في فعل المصافحة. ذراعها المنسابة العارية، تدخلها صبوتي في فعل المصافحة. كتفاها أمام كتفيّ. صدرها أمام صدري. عيناها عالم وعيناي ارتحال. وابتسامتها أمام.. كيف كان تعبير وجهي في تلك الثواني قبل ثلاثة وعشرين عاماً؟ كيف كان وجهي؟ كم بقي من ذلك الوجه الآن؟ وشعرها بستان من السحب الشفقيّة أمام تراب كالبحر يترقّب المطر. وقامتها.. كيف كانت قامتها؟ ليس بوسعك أبداً أن ترى زوبعة ترفعها روائح التراب والمطر ولا عنف فيها.

لماذا الوصف؟ لكل امرأة شكل يثير إحساساً ما في الرجل. يغيب الشكل فيغيب الإحساس. انتهينا. الأهمّ كان هي، هي بالذات، هذه الكائن، هذه الكيان، تلك اللغة التي انكتبت بحبر سرّيّ على ابتسامتها الدائمة وعينيها القارّيتين. أعتقد أنه في تلك الثواني (كم كانت يا ترى؟ ربع دقيقة؟ نصف دقيقة؟) التي مضت علينا ونحن في فعل المصافحة تمّ أسرع تبادل للرسائل في بريد العالم.

ثم مضت. بعد ست دقائق أو سبع، مضت. بعد المصافحة وقفنا نحن الثلاثة نتحدّث. قلت لها إني بالطبع مغرور كبير، وإني ملك الكبرياء. وإني إذا لم أجد أحداً أتكبّر عليه تكبّرت على حالي. وبسبب كبريائي فهي لن تحلم يوماً ومهما كانت الظروف بأن تراني أدخل محراب جمالها لأتعبّد فيه. وقالت هي إن صفواناً يراها مسافرة زادها الخيال، ولذلك لا تملك محراباً يصلّي فيه. وشكراً لصفوان الذي لولاه لتشتّتت في العالم. إنه مرفأ روحها الهائمة. وقد أقام لأجل خيالها مزرعة شمال المدينة، وسوّرها بحيطان عالية من السرو والياسمين وزهر العسل لكي لا تتقمّص شخصية عباس بن فرناس. وإنه...

ثم قرّر غسّان أن الوقت المخصّص لكي تطلع سهير عليّ قد انتهى. دعاها للخروج. خرجا. لم تصافح هذه المرّة. لم تقف عيناها أمام عينيّ سوى ثوانٍ خاطفة. قالتا: وداعاً. وكان وداعهما ذا معنى توكيدي رهيب غير ما كانه وداع لسانها وشفتيها.

بقيت وحدي. طأطأت. أعدت «التربيزة» إلى وضعها السويّ، والأوراق والكتاب. للأمانة، ظللت أحلم. لقد أعدت ترتيب ما حولي لكي لا أتبدّد في الحلم، ولكي أظلّ محتفظاً بواقعي. لكنني عدت واستسلمت للحلم. في الحلم كلّ شيء يختلف، كلّ شيء يحلو ويعذُب، لأنك لست مطالباً فيه بالحقيقة. ظللت أحلم: وجهها هو الصور، وحبّها هو الأمنيات. لم تكن حاضرة، فلم أستَهْوِلْ فكرة أن تحبّ امرأة مثلها رجلاً مثلي. ذهبت. تركت لي حبال خيالي على غاربها.

ثم أخذ الحلم حقّه فانكفأ، وعدت أنا إلى أرضي الوطيئة.

أين تتوارى تلك الصبوات التي يظنّها المرء ماضية وزائلة؟

ستّ سنوات مضت بعد تلك الدقائق الستّ. ليس فقط أني لم ألتق بسهير، بل ولم أسمع أحداً يقول عنها كلمة واحدة، ولا التقيت بأحد يعرفها. كنت أحسّ أنها موجودة حولي، في واحد من العوالم الشاسعة التي لا تلتقي ولكن تضمّها المدينة. وربّ صدفة سعيدة تهلّ وتجمعنا بكل سهولة: كتفاها أمام كتفيّ، صدرها أمام صدري، وجهها أمام وجهي، عيناها عالم وعيناي ارتحال...

بدلاً من الصدفة السعيدة، أخذت الصور تخبو وتضمحلّ ـ صور تلك الثواني وتلك الدقائق، ذلك الاضطراب الخفيف الخفيف ولكن الشبيه ببدايات هزّة أرضيّة. ذلك كله أمسى ظلالاً باهتة يراها الحنين أكثر مما تراها العين. وأخيراً اختفت بالمرّة. مثل هذا كثير، قلت لنفسي. إنه يحدث لكل رجل مع كل امرأة ذات نكهة خاصّة. وهي نتاج الصبوة لإنتاج شيء آخر.

وبعدئذ، من أنا لكي أتنطّع لغسّانها هذا وصفوانها ذاك؟

اختفت الصور أوائل الربيع. ورحت أتساءل: أين هي الآن تلك المرأة الجميلة التي اختفت حقّاً لأني ببساطة لم أصدّق أنها يمكن

أن توجد؟ وماذا قال كلٌّ منا للآخر في تلك الثواني المؤبّدة الجامحة؟

تلك اللغة اختفت أيضاً. ألم يقل أحد ما إن الزمن قَدَر، أو ممحاة؟

ثم عدت لا أتساءل. رحت أصعد في جوزاء الحياة. وبعد سنين صرت مواطناً خطيراً. صرت صديقاً لوزراء ومليونيريّة وضبّاط وأعيان وقوّادين.. أسعدهم أن يبعثوا بزوجاتهم إلى عيادتي - زوجات كانت أجهزة أبدانهنّ وأعصاب أحواضهنّ عليلة بسبب أمراض أرواحهنّ.

لم أكترت كثيراً لأولئك النساء. حقيقةً، إن خطورتي المكتسبة كانت عبئاً على قلبي. لذلك جعلت عيادتي مفتوحة لأبناء الأراضي المنخفضة كلّ الوقت، وبأيّ أجر أمكنهم أن يدفعوه - ليس لأي موقف إنسانيّ وإنما رأفة بنفسي.

لكن قصّتي مع هؤلاء النساء غريبة حقّاً. وقد بدأت منذ بداية ممارستي لتخصّصي قبل سنتين، يوم جاءتني زوجة مسؤول خطير إلى العيادة. كانت جميلة كالعادة في هؤلاء الزوجات، وشهيّة على غير العادة. ولم تكن قد تلظلظت بعد بحيث تحمل معها أينما تحرّكت عشرين كيلوغراماً زيادة وزن. لكن لباقتها الاجتماعيّة المطلقة جعلتها تبدو مثل تمثال من الكلس، قالت لي: «افحصني يا دكتور، أنا تصيبني نوبات أعضّ فيها ذراعي وأضرب الحائط حتى أهدمه.»

فحصتها مثنى وثلاث. ثم قلت لها: «أعطيني الأمان من زوجك، حتى أصف لك الدواء الناجع.»

ابتسمت بدلال خفيف وغبطة: «عليك الأمان.»

قلت لها: «الحقيقة يا مدام، دواؤك موجود في صيدلية اسمها: الشوارع. تمشّيْ في الشوارع. كلي قُمع بوظة وأنت ماشية. وتخفّفي من هؤلاء المرافقين الثلاثة الذين يحتلّون مقاعد صالة الانتظار. روحي إلى سوق الخضار، مثلاً. إلى سوق البالة. يعني!»

من العيادة كنت أخرج إلى الشوارع، لأطبّق العلاج على نفسي. ومن هناك أصل إلى مكتبي في النقابة. أغلق الباب ورائي وأسترخي بجوار النافذة المطلّة على الحديقة العامّة. بعض الناس يكتسبون عافية نفسيّة مدهشة عندما يصيرون مواطنين خطيرين. وبعضهم تتلبّسهم الكآبة والاستهزاء. وأنا من النوع الثاني. كنت قد بتّ أعرف أن هؤلاء الذين أرضهم فوق، مثل زوج تلك السيّدة الخطير، لا يفعلون شيئاً سوى حفر الآبار في أرضنا، نحن الذين نكره أن نصطرع مع الآخرين على الماء.

وهكذا فبعد ستّ سنين رأيت سهير مرّة ثانية. في الوقت نفسه من النهار، تقريباً وفي المكان نفسه. لكن «التربيزة» لم تقع هذه المرّة، ولا الأوراق والكتب وفنجان القهوة والسيجارة. ولا صينيّة الشطائر والعصير التي كنت أحملها من مطبخ المنتدى إلى إحدى الطاولات.

قالت: «كنت أقول لغسّان إنك لن تتذكّرني بعد ستّ سنوات وشهرين. الإنسان ينسى ألف حادث من هذا النوع. لأن لقاءنا يومها كان بشقّ النفس قطرتين أو ثلاثاً في بحر حياتك...»

وقال غسّان: «وأنا خالفتها الرأي طبعاً. إعطاء قطرات ماء هو العطاء. هذا التفضّل والتنازل من الجمال هو أروع ما تجود به الطبيعة. هذه العلياء، دنت منك أنت، ولو ببضع قطرات! شيء رائع!»

كان غسّان ما يزال يريدها. إنه لشيء يثير الإشفاق. غير أنه مع ذلك يثير مثقالاً من الإعجاب - هذا التشبّث العنيد المديد طوال ست سنوات بالوصول إلى امرأة مستحيلة!

كيف تصافحنا هذه المرّة؟ أغلب الظنّ أن كل شيء قد تكرّر: يدها في يدي، كتفاها أمام كتفيّ، صدرها أمام صدري، وجهها أمام وجهي... وتدويرتا كتفيها أقرب قليلاً إلى الأمام، كأن يدين قويّتين تشدّان عليهما برفق... وغزارة غير معقولة في الكلام:

«ألا ترى «غسّان» رائعاً وعظيماً؟ أنا أهنّىء زوجته عليه. إذا لم يكن معك وقت لاستقبالنا...»

«...».

«فأنا جئت أبلغك أن «صفوان» يحبّ أن يزورك. يتمنّى كثيراً أن يتعرّف عليك. أنا قلت لصفوان: لا أظنّ الدكتور هشام يحبّ صيد الطيور، فلا تتعب نفسك بدعوته إلى المزرعة. لكن «صفوان» هو «صفوان». لا يحبّ أن ينقص شيء من حياته...»

«...»

«يريد أن يتعرّف عليك، يعني سيتعرّف عليك. حتى ولو لم تحبّ صيد الطيور. صفوان وغسّان.. أنا عندي حلّ وسط.. يحملان بارودتيهما...»

«أنا عندي مكتب في النقابة، وعندي بيت، وأهلاً...»

«أنا قلت لك يا غسّان، أما قلت لك؟ قلت لك: خذ بالك! التواضع يمكن أن يكون كرياء. طيّب، دكتور هشام! يمكن يسعدنا الحظّ، أنا وصفوان، ونشوفك في المستقبل...»

توقّفت تماماً عن الكلام. طول الوقت كانت تبتسم، ولكن دون أن تبين أسنانها إلاّ لأجل الكلام. بدت أقلّ جمالاً، وأكثر إنسانيّة ومحبّة. مدّت أصابعها الطويلة للوداع. اختفت - مرّة أخرى.

لبثت جامداً برهة. ثم انتبهت إلى أن كل من في المنتدى مسلّط نظرته عليّ، ولا بدّ. كان يجب أن أتظاهر بتفكير عميق، لا أثر فيه للانفعال. مشيت بصينيّتي إلى طاولة نائية وحافظت على انشغالي الهادئ. كان ضرورياً أيضاً أن آكل شطائري وأشرب عصيري لكي أبعد الشبهة عن وجهي.

ماذا حدث لي في تلك الظهيرة؟ ماذا حدث لي في ذلك اليوم؟ طبعاً، لم تقف اللقمة في حلقي، ولم يستعص عليّ شرب العصير. بالعكس. رأيتني أقبل على طعامي بنهم علّه يريحني من أحاسيس الذلّ والصغار التي هبطت على جوانحي.

بعدها عدت إلى البيت وبقيت هناك. لأول مرّة منذ سبعة وعشرين شهراً لا أذهب مساء إلى عيادتي. كان تراب أرضي الوطيئة يدوّم وينتفض في الفضاء مثلما ينتفض هذا الرمل أمامي الآن.

ستّ سنوات أيها الإنسان، ولم تعرف أنك أحببتها! كيف؟ أين هدي قلبك؟ ماذا يهمّ، أكان وقتكما دقائق أو عصوراً؟ إذا لم تعنِ لك نبضات القلب شيئاً، وأنت الطبيب، أفلم ينبض وجدانك بشيء له معنى؟ قبل ست سنوات قلت لنفسك: مثل هذا كثير، فهل حدث لك مرّة أخرى؟

ضربت قبضتي على الطاولة. نهضت نصف نهوض، واستندت على راحتيّ. أنا لست ممّن يتحملّون التأنيب الذاتي، فأنا أساساً على القاع، ولا مكان أتراجع إليه أثناء الندم. ولست نبياً لأعي أن ستّ دقائق يمكن أن تكون الحياة.

أمضيت النهار التالي خارج نفسي. رأيتني أكره نفسي وأبعد عنها. في العيادة، كما في النقابة. وبعد أن أتيت على شطائري وعصيري، رأيت أن المكتب خير لراحة عقلي من البيت. قرب باب المكتب رأيتها، عند أعلى الدرج ـ بعيدة عن الباب بما يكفي للاعتقاد بأنها تنتظر غسّاناً مثلاً، أو صفواناً، ربما، أو أي إنسان سواي، وقريبة منه بحيث لا يصعب عليها الدخول إذا دعوتها.

ابتسمت، وافترّت شفتاها، وبانت أسنانها. أمالت رأسها إلى اليمين كبنت تتشيطن، دون أن تفقد ملامحها تعبير الانتظار ذاك.

وقفت أمام بابي مبتسماً بكرم ضيافة. كان لا بدّ من شيء من الغربة، وربما اللامبالاة أيضاً، فكل ما أقضّ مضجعي أمس قد يكون غائباً تماماً عن قدراتها. فتحت الباب، وأبقيت يدي ممدودة تجاهه تدعوها إلى الدخول.

أقبلت. الابتسامة نفسها. الوجه والصدر والكتفان والأنف ـ تنساب وتستدير حتى يصير الظهر أمامي. «ما دمت لا تحبّ صيد العصافير!» قالت تفسّر لي سبب اطمئنانها إلى الدخول.

«هذا لا يعني أني لا أحبّ العصافير ذاتها».

«أنا أحبّ تشيخوف وشقيقاته، الثلاث. أنت مثله أديب وطبيب يا ترى؟ يجب أن أصفها وهي تدخل، وهي تجلس على الكنبة الجلديّة السوداء. فمثل هذا الكيان فرح وحلم، حتى للذين يرونه عبر الكلمات. لكنّي لن أفعل. سيجعلني الوصف مثل هذا الرمل العاصف في الفضاء. ليس لأنها فيها جمال الآلهة، وإنما لأنها كانت إلاهة للحب. أنا لم أجرؤ يوماً حتى أن أبعث بنظرتي إليها. ولهذا التفتّ إلى الهاتف المحلّي، وبمرح صاخب طلبت من عم عبده فنجاني قهوة على الريحة.

«افترضت أنك تحبّينها على الريحة» قلت وأنا ما أزال لا أراها. وكنت آمناً في تلك اللحظة لقد جلست وراء طاولتي.

لم تردّ هي، ظلّت ابتسامتها ستارة. نهضت إلى الشباك ونظرت منه إلى حديقة أبي العلاء. أنا لم أنهض. ما إن أدارت ظهرها حتى ارتحلت في قامتها وأسلمت نفسي لإيمان شبه دينيّ بأنّني أحبّها. ورحت أتقطّر ابتهالاً لوجودها.

التفتت وقد كبرت ابتسامتها. حتى أسنانها انفرجت. لكنها كانت ابتسامة مودّعة. «هشام» قالت، فصرت عموداً من البرق. «لا تسأل ولا نصف ربع سؤال. اشرب عني فنجان قهوتي ـ بكل محبّة. أنا ماشية.»

لوحت بأصابعها أمام ابتسامتها، وخرجت.

أما كان يمكن أن تنتهي القصّة يومها؟

لماذا عدت في اليوم التالي أيّتها النجمة المسافرة؟ لماذا عدت؟ وبالطريقة نفسها؟ وجلست على الكنبة السوداء: «أين فنجان قهوتي؟ كنت عارفة أنك ستشربه. طبعاً. الأرض الوطيئة تشرب قهوتها وقهوة غيرها. تعرف؟ لو تركته هنا على الطاولة، وغطّيته بالصحفة، حتى اليوم، كنت شربته.»

كانت لغتك مازحة، لكن صوتك ووجهك أيضاً، ألبساها مسحة من الحزن ـ لا بل من التعب، بل ربّما من الحزن والتعب معاً. كأنك لم تنامي نوماً كافياً الليلة الفائتة، مثلاً. أو كأنك أضعت مسوّدة قصيدة...

كنت تقولين: «صفوان يسلّم عليك ويقول لك إنك واحد يا لطيف اللطف ما أبخلك. خفت أن تقبل دعوته فتضطرّ إلى دعوتنا بالمقابل. لكنه متنازل عن دعوتك لنا يقول لك.»

رفعت اللغة المخاتلة رأسها من جديد. وإذن فصفوان يعرف أنك هنا. وإذن فزيارتك عاديّة تماماً، وعليّ ألاّ أستنبط منها ما هو زائد عن ذلك. وكل هذا الحديث المستمرّ عنه يعني أنه لم يتزحزح عن مركز العرش.

تداعت دقائق الزيارة الثالثة.

في اليوم كنت أنتظر مجيئك متوتّراً. وقد جئت. كان فنجانا القهوة جاهزين، مغطّيين بصحفتيهما. دخولك هو نفسه. نسيم قامتك نفسه. وابتسامتك. ومزيد من الألفة والارتباط في عينيك المطمئنّتين. هذه المرّة بادرتك أنا بالكلام: «هل جئت بصفوان معك؟ أم جئت وحدك؟»

ابتسمت ووجهك بوجه فنجان القهوة ويدك تهمّ بتناوله. قلت

بهدوء متعابث: «صفوان ليس أبداً معي يا عزيزي هشام. أنت تعرف. لا أحد مع أحد.»

ثمّ نظرتِ إليّ بشيء من الارتياح والجمود. توقّفت حركة يدك المقتربة بالفنجان من شفتيك. أيقنت أنك قلت أكثر مما ينبغي فحاولت الاستداراك، وطلب وجهك مني أن تكون الكلمات فاتت مسمعي.

لكنها لم تكن فاتت مسمعي. بدأت ترشفين القهوة بصمت، وتنظرين باتجاه النافذة. ثم وضعت الفنجان على التربيزة ونهضت نحو النافذة. نظرت إلى ذلك الفضاء.

كنت متّكئاً بمرفقيّ على الطاولة، شابكاً أصابعي أمام فمي الأبكم. مرّة أخرى أطلّت قامتك هناك. أنا لا قدرة لي. لا أتحمل. أحبّ ماء المطر، لكن السيول تخنقني.

نهضت من مكتبي. أغلقت باب الغرفة وأقفلت مزلاجه. وجئت إليك. لم تلتفتي. صار كتفي وراء كتفك، وصدري وراء ظهرك، وفمي وراء شعرك. التفتّ. مددت ذراعيك ببطء فوق ذراعي، وببطء أغمضتِ عينيك، ثم ألصقتِ خدّك بخدّي.

عرّشت يداي على قامتك. هممت أبعدك عن الشبّاك، لئلاّ يراك أحد في الحديقة، فرفضت قامتك أن تتحرّك. وصرنا، نحن الاثنين، واحداً أمام الفضاء.

انتظرتك في اليوم الخامس؛ وجئت. كان انتظاراً فظيعاً. لأنك عندما ابتعدت عن النافذة وخرجت، خرج معك كل شيء. رحت أستعيد ما حدث كما لو أنه حدث لشخص آخر غيري. وكلما أكّد عقلي أنه حدث لي بالذات، هبطت عليّ مسحة من البله والسكون. كأنّ بركة استردّت ركودها بعد أن خلخلته حصاة طائشة. طول ذلك النهار، ومدى ذلك الليل، وأنا أقول لنفسي: مستحيل! أوَلكَ حقّاً هذه السطوة على النساء يا سيّد هشام؟ هذه العلياء ـ كما يسمّيها غسّان ـ أنزلت قدميها الحافيتين على أرضك.

كان في روحي نشيج، وصرخة تطلب توكيداً. لا شك أن تينك الهالتين من الحب والجمال قد انعقدتا فوق رأسنا لأن هناك غلطاً وقع وأخلّ بنظام الطبيعة. كان بوسعك أن تختفي فأنت اختفيت من قبل. وكان بوسعي أن أقول: مثل هذا يحدث كثيراً؛ وأصعد إلى الأعلى خلال ست سنوات جديدة. ففي هذا الزمن، من يسعه أن يصدّق شيئاً أو يثق بشيء؟

لكنك جئت. بالطريقة نفسها. وجلست على الكنبة السوداء. فتحت جزدانك الشاسع وأخرجت منه جسماً غريباً، فيما أنت تقولين: «اليوم، أنا سأسقيك من قهوتي. عملت لنا نحن الاثنين قهوة خاصّة. قهوة سنشرب منها على طول.»

راحتاك رفعتا بتؤدة الجسم الغريب أمام عينيّ. وعيناك عبثتا بفهمي. أية شجرة حملت هذه التفّاحة الفلكية؟ وكيف تلوّنت بهذه الظلال العجيبة المحكمة؟!

لم تكن تفّاحة. كانت حجماً من الورق المقوّى الصقيل. وبلا ريب فإن مصنعاً خاصّاً قد أنشيء لصياغتها.

على تلك الألوان التفاحيّة المتدرّجة رأيت صياغة أخرى. كتابة بخط اليد. أجل. على سطح التفاحة الإهليلجيّ الشبيه بالكرة الأرضيّة، رأيت حروفاً، بالخط الكوفي أو ما يشبهه.

تناولت التفّاحة من يديك وقد انتقل اهتمامي بالكامل من اللون والحجم إلى اللغة. كانت الكتابة تدور على التفّاحة الكرة، وترسم ستة مدارات من اللغة وخطاً استوائياً واحداً، تبدأ من مكان ما مثل غرينلاند وتنتهي في أنتارتيكا. إنني أتذكّر تلك الكلمات ـ إن لم يكن بالحرف فبالمعنى المؤكّد. لقد كتبتها على التفّاحة لكي تنقش بعد القراءة على الذاكرة:

> يحدث الزلزال عندما يعجز الماء عن أن يخرج من جوف الأرض ـ يحدث عندما تكون الأرض كتيمة أو عندما تطوّقها أراضٍ كتيمة ـ فلا هواء يدخل إليها ولا ماء يخرج منها. هناك أرض مفتّتة التراب مفردة الذرات ـ حاصرتها الأراضي الكتيمة ـ لا تشرب ولا تسقي ـ حاصرتها الأراضي الجسيمة.. الخطيرة.. والمزارع ـ نهر يحبّ أن يدخل إلى ترابي ـ يمدّ جداوله وتيّاراته ولا يستطيع ـ ما بال الزلزال لا يحدث ـ قلت لأرضي اعملي انزياحاً ـ ليس ضرورياً أن تنبثقي إلى الأعلى لتتنفّسي وتدفقي مياهك ـ انزاحي من هنا ـ انزاحت ـ اخترقت صخوراً صمّاء وحواجز شائكة كانت تطوق إحدى جهاتها الثماني ـ نعم ـ خرجت إلى فضاء جوفيّ جديد ـ هناك انعقدت غيومي فوق رأسي وانعقد معها عشرون قوس قزح ـ مع ذلك لم أستطع أن أمطر سوى قطرات قليلة من هذه الغيوم التي تعجّ هالاتها في فضائي ـ قطرات ـ لا أكثر ـ يتمنّى غيرك لو نزل عليه معشارها ـ وأنا تمنّيت منذ ذلك اليوم الرغيد لو أنها تكون فاتحة الغيث ـ عرفت أنه الحب منذ اليوم البعيد ـ عرفت أنه لا مفرّ منه ـ مهما كابرت ـ هذه خلجات لا تخفى على الروح ـ أتيت كفاتحة للعذاب وفاتحة للأغاني ـ أتيت ولا أعرف الآن من أين أعرف أنك كنت معي كلّ آن...

لأول مرّة نتبادل نظرة مباشرة لا التواء فيها. كانت نوعاً من التوقيع بالأعين على اعتراف متبادل. وإذن فهذه الدقائق غلبت ستّ سنين. وقبلة البارحة لم تكن فورة في الجسد وانتهينا، وإنما فورة في الروح.

كنّا سعيديْن. وكنّا حزينيْن أيضاً. وخائفيْن قليلاً. ومتعبيْن. كأننا مشينا ستّ سنوات، تهنا، أو كأنّنا عطشنا ستّ سنوات ولم نشرب الماء إلاّ خلال دقائق. يا للفزع!

قلت لها بوجل مستتر: «من الآن فصاعداً سنبقى معاً.» لم أجرؤ

على الكلام الكبير ولا على المواثيق الكبيرة. طوال الوقت رحت أنظر إليها وفي نفسي تدور ناعورة سؤال مستحيل أهو حقّاً الحب؟ هذه المدارات الستّة على التفّاحة، إذا امتلأت بهذا الحب كله وهذه اللغة، أيظلّ خط الاستواء مستوياً؟ قلت لها: «مثل هذا لا يحدث إلّا مرّة واحدة في العمر.» وقلت لنفسي: لماذا لا يكون الذي في قلبي واحداً من أسماء الحب؟

كانت سهير ما تزال تبتسم. هي لم تتوقّف عن الابتسام. وأسنانها الصغيرة النضيدة تلمع في العتمة. «أعطني التفّاحة»، قالت، ومدّت يدها فأخذتها.

«ظننت أنها ستبقى معي،» قلت بنبرة مالك متسامح محبّ، وقد بدأت أحسّ بالتعب.

كانت قد وضعتها في الجزدان الشاسع. هزّت رأسها بتشيطن هادئ: «هذه تفّاحتي!»

لم أحتجّ. لم أطلب إليها أن تبقى، ما دام فراقنا سيكون من الآن فصاعداً هو الاستثناء ولقاؤنا هو القاعدة، فلتمضِ قليلاً إلى العالم الذي خرجت منه.

نهضت. علّقت جزدانها بكتفها ومدّت أصابعها الطويلة للوداع: «المفروض أن أكون في البيت من نصف ساعة.»

«ولكن أنت لم تقعدي هنا نصف ساعة! إنما أملي في لقائنا القادم.»

أحسست أنني أغرق وأطير: هذا كله، كله، حدث لي. وهو فيضان. هذه الأمومة الأرضيّة.. هذه القامة الربّانيّة.. هذا النهر... كان أرحم ما يمكن أن تفعله هو أن تغيب بسرعة لكي أعود إلى شيء من الواقع. لقد تطلّب الانتقال الصاعق من الخلاء إلى الامتلاء قوّة لم أمتلكها.

تصافحنا واقفين وبلا حراك، دخلنا في دارة المصافحة. صرنا فقط تينك الراحتين اللتين تتلاصقان وتنشدّان. وأيضاً ابتسامة عميقة تجدّد الاعتراف وتكتب عهداً.

كان اليوم السادس يوم جمعة.

انتظرتها اليوم السابع. انتظرت وظللت أنتظر. أنتظرتها الأسبوع السابع. والسنة السابعة...

رأيت غسّان في السنة الأولى ـ وحده. عاتبني عتاباً شديداً: «أنت غير معقول أبداً. صفوان يطلب صحبتك. وفي أي وقت، بيته مفتوح لك. اليوم، وبعد سنة.»

علمت على الأقل أنها في المدينة ـ في واحد من عوالم المدينة.

ثمّ لم أرَ «غسّان» بعد ذلك. وقيل لي إنه استقرّ في مدينة أخرى. وبعدها أخذت الصور تخبو وتضمحلّ. مثل هذا ليس كثيراً، قلت لنفسي. لكنه يحدث ثمّ يغيب. ما دامت لم تعد، فتلك الدقائق التي جمعتنا كانت نزوة إيطالية. هل أصدّق الدقائق وأكذّب السنين؟

بدأت الصور تتشظّى. وأهمّ من هذا: بدأ الاعتراف يتشظّى. والعهد. كانت ضربات الغضب والقهر أقوى من رنين الاعتراف والعهد. وأيضاً ضربات الاستخفاف واللامبالاة. وأقوى منها كانت ضربات الحياة اليومية، بل حبالها التي تلتفّ وتلتفّ.

أيوجد يا ترى في هذا العالم ناس يقولون للحياة اليوميّة: قفي! ويتركون كل شيء ويندفعون لاسترداد بضع دقائق؟ أنا لم أقف ولم أستوقف ولم أفعل شيئاً. حتى إنني لم أعد أنتظر. بعد ذلك اليوم الخامس، مضى سبعة عشر عاماً ومضى الانتظار. أنا أعرف منذ زمن بعيد أن الحياة لا تحوّل مجرى أنهارها لتصّب في أرضي.

سهير يا ساحرة، أين أنت الآن؟ تحت أيّة غيمة مشيت، أيّة شمس ونجوم؟ تحت أيّ مطر وأيّ برق ورعد؟ أأنت ما زلت على قيد الحياة يا ترى؟ من أيّ نبع تشربين ومن أيّ خبز تأكلين؟ فوق أيّ شارع تمشين وأيّ عشب وأيّ تراب وماء؟ أمام أيّ كتف تقفين، وأيّ جدار وأيّ فضاء؟

الكويت